

الحياة الأدبية في شرق الأردن

بقلم السيد جريس القسوس

ما كنت أرغب في التعرض لهذا الموضوع ، لو لم تنشر (الرسالة) الغراء بحوثاً متممة لمختلف الكتاب عن الحياة الأدبية في بلدانهم . لهذا رأيت من واجبي ، وأنا بعيد عن شرق الأردن ، أن أقدم للقراء الكرام صورة صادقة بقدر الامكان عن الحياة الأدبية في شرق الأردن . أقول هذا وأنا أشعر بمحروجة الموقف ودقته ، إذ لا يخلو مثل هذا البحث من بعض الخطأ مهما توحى الباحث العدل والصدق في بحثه

لم تكن بلاد ما وراء الأردن ، منذ خمسة عشر عاماً ، إلا جزءاً من سورية لا ينفصل ، فهي لذلك بلاد قتيبة في تكوينها السياسي وفي نهضتها الأدبية والاجتماعية . أما المقصود من هذا المقال النهضة الأدبية ، فلنقتصر على هذه ، تاركين البحث في السياسة والاجتماع لعلماهما

دبت في شرق الأردن حياة أدبية جديدة ، لم يكن لنا عهد بها قبل بزوغ فجر الأمانة . فكان أول عمل قامت به الحكومة فتح المدارس الأميرية ، من قروية وابتدائية وثانوية ، وتحسين برامج التعليم ، وتوجيهها إلى حد ما ، في مختلف المدارس الطائفية وغير الطائفية ، حتى أصبحت تنهج جميعاً نهجاً واحداً سوياً نحو إيقاظ الروح العربية الكامنة ، والتوفيق بينها وبين التيارات الجارفة التي بدأت تطغى على هذه البلاد من الغرب . كانت شرق الأردن بحكم الوضع السياسي والجغرافي ، قبل الحرب العظمى ، بلداً مجهولاً ، ولازوائه وانقطاعه عن البلدان العربية المجاورة لم يتسن لأهله الاحتكاك بأهل الأقطار الأخرى ككل الاحتكاك ، فتمتزج بذلك الثقافات ، ووا كانت شبه متجانسة ، فتفاعل وبثولد عن ذلك روح وبقطة جديتان . كانت الحياة الأدبية قبل ذلك راكدة ، والنفوس فاترة . والمواهب الكامنة ؛ فلم تنبثق إلا بتأليف حكومة سمو الأمير المعظم ؛ عندئذ دخلت البلاد فئة راقية من أدباء الأقطار المجاورة ، وخاصة سورية ؛ فكان دخول هذه الفئة البلاد باعثاً كبيراً على إحياء الأدب العربي ، وحدثت نهضة فكرية مباركة لا نكون

مبالغين إذا سميناها بالرنسانس ؛ فكان مثلاً لقصائد الشيخ فؤاد باشا الخطيب^(١) شاعر الثورة ، والأستاذ محمد الشريق^(٢)

وغيرها من الأدباء الذين رافقوا الثورة العربية ، وطوّحت بهم الأقدار إلى هذا القطر الجديد ، أثر لا يستهان به في إحياء الآمال في نفوس الأحداث ، وقد كانت ميتة آتئذ ، وفي إيقاظ الروح الأدبية الكامنة ، وتوجيهها في السبل القروية

ولقد نشطت الحكومة ، بعد استقرار الوضع السياسي في البلاد ، إلى إرسال البعثات العلمية سنوياً إلى الجامعة الأمريكية في بيروت وغيرها من المعاهد الراقية في سورية وفلسطين ، وتنبه الشعب الأردني إلى فضل العلم والأدب في نهضات الشعوب ، فبادروا إلى إرسال أبنائهم على نفقتهم الخاصة إلى بيروت والجامعة السورية في دمشق ، وإلى المدارس الثانوية في فلسطين ، ولكثرة الطلاب كثر الاقبال على مطالعة الأدب ، المصري منه والسوري ؛ فكان أثره في إيقاظ الحركة الفكرية ، ومجديد الحياة الأدبية غير يسير

كل ذلك كان يحدث ، بينا الصحافة المصرية تغذي نفوس الأحداث بأدبها الراق وعلمها الصحيح . ولا أبلغ إذا قلت إنه كان « للرسالة » أثر ملموس في إحياء النهضة الفكرية ، وتشجيع الحياة الأدبية في البلاد . فقد كان اقبال الطلاب خاصة على مطالعتها شديداً . وإنني أذكر - على سبيل المثال - أنه كان يباع منها في حين نحو ثمانين عدداً أو أ. كثر في بلد صغير كالسلط . « فالرسالة » وغيرها من المجلات والصحف العربية كانت ولا تزال ، تسد عوز البلاد وانفجارها إلى صحافة حرة تعمل على تشجيع الإنتاج الأدبي ، « ونجى في النشء أساليب البلاغة العربية » بيد أنه ، وإن لم يقم في شرق الأردن إلى الآن مؤلف بالمعنى الصحيح ، أو أدب منتج يستمد مادته وموضوعه من الحياة ، إلا أننا نرى طلائع نتاج هذه العوامل المختلفة في تكوين النهضة الأدبية الحديثة في قيام فئة قليلة من حملة الأقلام الثرية كأديب عباسي ، والدكتور محمد أبوغنيمة ، وبشير الشريق ، وعبد الحليم عباس ، والبدوي الملم وغيرهم ؛ والشعرية أمثال مصطفى وهبي التل شاعر النور ، وصاحب ديوان « عشيات وادي اليايس » ، وحسن فريز ، والشيخ رشيد زيد ، وحنا الشوارب وغيرهم من الأدباء الأحداث

(١) مستشار سمو الأمير الحاس (٢) مفترس المعارف الحال

ألا قليتل يا عقاب من لامي في ذلك بحية تيمته ميتة لا يدخل
بمدها الجنة «

ومن هؤلاء الشعراء أيضاً أبو الكباير من قبيلة الشرارات ،
وهو مشهور بالشعر الحماسي ، ووصف الغزوات والمعارك . وقصيده
في مدح عودة أبي تابه^(١) وقد تحاربت قبيلته مع أهل الكرك .
وفي هذه القصيدة يقول ، بمد أن يستهما بذكر الله وطلب عفوه
وغفرانه ، شأن غيره من شعراء البدو :

قَمِّ يا على نُشرفْ على كلِّ طابِلِ
شَدَيْتْ عوصا تقطَعُ الدوّ حابِلِ
أى أنهض يا على (وهو بطل الطليعة) وأعدّ فرسك ،
لنقطع الغلاة ، ونشرف على مواقع الأعداء .

إلى أن يقول واصفاً مرابع عودة أبي تابه :

تاتى بيوتاً بنوا بى تزيه تلقى جميل دلالهم عن نفيله
ألبن بالهيوان تسمع صهيله عزام لوجوه المسابير زافات
تلقى شايكاً عندهم مستعدّ الحرة إلى باللازم يسدّ
عنه مجوض الخليل يوماً يهد

عن حرب أبو تابه إلى له الفل عادات
(أى تلقى منازلهم مضروبة في أعلى الروابي دلالة على
شجاعتهم ، وعدم خشيئتهم العدو ؛ وفي مطارح النار تاتى حثالة
البن دلالة الجرد . وفي تلك الخيم تسمع صوت الهاون ؛ إذ يدق
فيه البن ، فيكون بصوته ذلك داعياً للخير والضيافة ؛ نجد
شيخاً حراً مضياًفاً ، وفارساً مغواراً تتجنب الفوارس بطشه ،
وترتد له الفرائص عند الحرب ، هو عودة أبو تابه «

ومن الشعراء المداحين سالم المرعى وعلى القزيبى وغيرهم ،
وأنا أعرف من الشعراء الأحياء الذين يجيدون قرض الشعر
البدوى في شتى الأحوال ومختلف الظروف : محمد بن هلال ،
وسعود المجالى في الكرك . وقد يكون غير هؤلاء في مضارب
البدو في الشمال وفي الداخل ، لكن دراسة هذا النوع من
الشعر دراسة عميقة ، وتدوين هذه الأشعار قبل أن تميت بها
أيدى البلى يحتاج إلى مشقة كبيرة من تنقل بين مضاربهم وتعرف
إلى أمانتهم وأحوالهم ، وطرق عيشهم

لكن شرق الأردن تمتاز عن الأقطار العربية الأخرى ،
وخاصة الساحلية ، بنوع خاص من الأدب ، أعنى به الشعر
البدوى . وهو ، وإن قل ، من حيث الكمية والنوع عما قبل ،
فإنه لا يخلو من عناصر حية تميزه عن غيره من الشعر الرائق المعروف
في شرق الأردن وفي كثير من البلدان العربية . والشاعر
البدوى شاعران : شاعر راوية ، يحفظ ، على أميته كمية وافرة
من القصائد المختلفة ، قديمة كانت أم حديثة ، ويلقيها في شتى
المناسبات كجالس الشيوخ والأفراح المختلفة من مولد وختان
وعرس ! وشاعر منشى ، مبتكر ، وعدد الفئه الأخيرة يسير جداً
إذا قيس بالفئه الأولى . وأكثر ما يكون الشعراء النشئون في
مضارب البدو على سيف الصحراء . أما أشهر أبواب الشعر
البدوى فالده والحماسة والغزل والعتاب والرثاء . ويطول بنا القام
إذا أردنا أن نتبسط في وصف هذا الشعر ، وفي معالجة شتى أبوابه
بإسهاب ؛ لكننا تقتصر على ذكر فريق من الشعراء البدو
المخضرمين - أى الذين نشأوا في أواخر القرن التاسع عشر
والحقوا العشرين - ونخص منهم بالذكر عمر المدوان ؛ وقصيده
في رثاء زوجه فصحاء مشهورة ، تتناقلها الألسنة في كل مكان .
وهو يستهما بمخاطبة ابنه عقاب قائلاً : -^(١)

البارحة يا عقاب يوم الفمرغاب بليلة العيد السعيد الجديد
إلى أن يقول ، واصفاً نفسه بعد ما ألم بها من حزن لفقد زوجه :
كل ما غشيت امراح أو جئت مرقاب
لجوح جوح الذيب وعض ييدى
أنهف ونوح واقطر الدمع سكاب
على صويجى إلى راح ما هو من ايدى
يا قلبى تقول صفوت حديد شباب
يا مهجى لوانه حجر كى صار شيد
من لامي يا عقاب بيلى بارقط ناب

من جنة الوهاب ما يستفيد
ومعنى هذه الآيات « أنتى كلما مررت بربع ، أو صعدت
جبالاً ، عريت كالذئب ، وقضمت كنى حزناً ، ومحت وسكبت
الدمع مدراراً على صاحبي المفقود ؛ وأنت بقلبي ناراً تضطرم
اضطراماً يكاد منها ذاك القلب لو كان حجراً ، أن يصير كلساً .

(١) اعتمدنا في ذلك على كتاب (خمسة أعوام في شرق الأردن)

(١) هو عودة أبو تابه شيخ قبيلة الحويطات الأردنية ، رافق الأمير
فصل في الثورة ، وآت من الدوسية الدهشة بالعباب ما حدا لورنس إلى
تخليده في كتابه « عواميد الحكمة البسة » ماقاً إياه بروبهند البدو